مقصد مراعاة السنن الإلهية

جاسر عودة

فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (الروم: 30)

فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (فاطر: 43)

كيف نعرف التفكير السليم من التفكير الخاطئ؟

الوحي هو هداية الله تعالى للبشر، ومن دون وحي من الخالق العظيم تضل البشرية في تيه عقولها وطرائق فلسفاتها الصغيرة وتفكيرها المحدود وشهواتها الطفولية. صحيح أن البشر كلهم يشتركون في فطرة فطر الله تعالى الناس عليها، ولكن هذه الفطرة تنطمس وتنحرف عن الصواب إذا لم تهتدِ بهدايات خالقها سبحانه، سواء أكان الإنسان فيلسوفاً واسع القريحة أم بدائياً بسيط التفكير. العقل البشري على مدار التاريخ أنتج ما لا يحصى من السفاهات والخرافات والخزعبلات التي لا دواء لها إلا هداية السماء. لا منقذ

للبشرية من الضلال والتيه العقلي والقلبي إلا الله. وأين نجد الهداية من الله تعالى إلا في الوحي الإلهي، خاصة الرسالة الخاتمة المحفوظة: القرآن الكريم؟

ولذلك فسنطوّف هنا أولاً حول مفهوم العقل بين التصورات البشرية التجريبية والوحي الإلهي الحاسم، ثم نتفكر في كيفية ترتيب هذا العقل حسب أنوار الوحي في اتباع السنن الإلهية المطردة والاتساق مع فطرة الله التي فطر الناس عليها. سنن الله في خلقه هي النور الذي يهدينا في ظلمات الجهل حتى نصل إلى "العقل"، وسنن الله هي التي تفرق بين التفكير السليم الذي يراعيها فيهتدي، والتفكير الخاطئ الذي يهدرها فيضل ويجهل مهما ادّعى العلم.

ما هو العقل؟ وأين يقع؟

العقل مصطلح يُستخدم عادة لوصف عمليات التفكير، والتذكر، والتحليل؛ وهو مفهوم دارت حوله تساؤلات عديدة على مدار التاريخ: ما هو العقل؟ وكيف يعمل؟ وهل هو كيان مستقل عن الجسد أم أنه عضو من أعضاء الجسد؟ وهل هو المخ؟ وكيف تتم عمليات التفكير على أي حال؟

ومصطلح العقل يُفهم في التعبيرات اليومية بمعانٍ مختلفة؛ منها معنى أنه الأداة التي تعين على التفكير فيوصف فلان بأنه عاقل، أو معنى يعبر عن الموضوعية فيقال فلننظر للأمر بعقلانية، أو معنى للعلم في مقابل الجهل، أو التوازن في مقابل الطيش، أو الحلم في مقابل الغضب.

ومنذ عصر طويل دار جدل واسع بين الفلاسفة حول مفهوم العقل، منذ أفلاطون وأرسطو وأسئلة الروح والجسد والمادة حتى عصرنا هذا. واليوم أصبح علم العقليات أحد الفروع الحديثة للعلوم التجريبية المتعدية التخصصات، والتي حظيت باهتمام منذ ثمانينيات القرن العشرين، وارتبطت الدراسات حوله بتطور الدراسات الطبية، خاصة في مجال الأعصاب وأبحاث وظائف المخ وآلياته المعقدة، وتعددت فيه مدارس ونظريات في فرع من الفلسفة يسمى فلسفة العقل، وخاض العلماء التجريبيون من مختلف العلوم والفلاسفة من مختلف المشارب في مختلف الدروب بحثاً عن حقيقة العقل وماهيته.

ولكن إشكالية الفلسفات والعلوم التجريبية إلى يومنا هذا هي النظرة إلى العقل على أنه وظيفة دماغية بالأساس. بل وتطور تصور هذه الوظيفة مع تطور الآلات التي يخترعها الإنسان نفسه؛ فبدأ تصور العقل في العصور القديمة على أنه جسم هلامي غير مفهوم، ثم تطور فأصبح تصوره على أن العقل هو جهاز مركب كأنه مكون من عدة تروس، أي كأنه ساعة أو ماكينة لها مدخلات ومخرجات ولها نظام تسير عليه، وهي نظرة نشأت في القرن السابع عشر مع العلوم آنذاك.

ولكن العلم الذي ينظر إلى العقل، بل وإلى الكون نفسه، كماكينة أو ساعة كبيرة قد تجاوزه الإنسان، فنحن نعلم اليوم أن الكون معقد ومركب وفيه أجزاء كبرى لا نعلمها، ونكتشفها يوماً بعد يوم، وكلما اكتشفنا أجزاء ومكونات ومعادلات حاكمة في هذا الكون طرحنا نظريات علمية كبرى جديدة، نظريات تغير من ثَمَّ نظرة العلماء والفلاسفة للكون وللعقل أيضاً.

ثم تطور العلم في أواخر القرن العشرين، وظهرت نظريات في العقل مفادها أن العقل أشبه ما يكون بالحاسب أو شبكة من الحاسبات،

وذلك تأثراً بدراسات الأجهزة الحاسوبية المعقدة التي تطورت تطوراً هائلاً في النصف الثاني من القرن العشرين، وبدأ العلماء في طرح نظريات عن مراكز ذات وظائف محددة لهذه الشبكة، مثل مركز الإبصار، ومركز القرار، ومركز الذاكرة، ومركز الشهوة، وغيرها؛ بل ومراكز أكثر تخصصاً داخل المراكز نفسها، مثل مركز الألوان، ومركز الأبعاد الثلاثية، ومركز الصور، وغيرها. وهكذا تم تحديد بعض المراكز في نظرية العقل المذكورة عن طريق البحث التجريبي، وافترضوا أن العقل هو المخ الذي تتفاعل فيه هذه المراكز لتأدية وظائفه المعقدة، بل تطور البحث ليمتد إلى الأفكار، بل والمشاعر والعقائد، يبحثون عنها داخل الجزء من العقل الذي يُعنى بالذاكرة، ويبحثون عن الإدراك والتصور داخل الجزء من العقل الذي يُعنى بالصور والألوان، وكان دليلهم في ذلك أن الإنسان إذا أصابه حادث، لا قدر الله، فإنه يفقد الإبصار أو الذاكرة أو القدرة على صنع القرار، حسب الإصابة الدماغية نفسها، فظنوا إذاً أن العقل هو مجموعة مركبة من الحاسبات كما كانت نظرة القرن السابع عشر للعقل على هيئة ساعة معقدة.

وبسبب هذه الاكتشافات أو بالأحرى النظريات توهّم بعض الباحثين أنّ باستطاعتهم أن يخلقوا عقلاً آلياً مكون من تلك الشبكات الحاسوبية، وزعموا أنهم قد وصلوا إلى سر (الوعي) و(الإدراك)، بل و(الروح)، فقالوا: أعطونا المواد الأولية والطاقة المطلوبة وسنخلق لكم إنساناً. وهنا يتجلى قوله تعالى: **(فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ)**[1]، وهو ما حدث للإنسان في القرن العشرين حين ظن أن قليلاً من العلم عن كيفية عمل جسم الإنسان وعقله تسمح له بالخلق والإبداع!

---

[1] **القرآن الكريم**، "سورة غافر،" الآية 83.

إلا أنه مؤخراً، ومع تطور العلم في هذا القرن الواحد والعشرين، اكتشف الناس أن العلم أوسع مما نظن، وأن الكون أوسع مما نظن، وأن الإنسان أوسع مما نظن، بل وأن الذرة أوسع مما نظن؛ فتواضع العلم التجريبي قليلاً وبدأ يدرك أن هناك ما هو غير معلوم في هذا الكون، بل إن العلم اليوم يؤكد أن أغلب ما في الكون حولنا ليس معلوماً لنا ولا نراه ولا نفهمه أصلاً، على الرغم من أنه موجود؛ وصدق الله العظيم: **(وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)**[2]. أيقن الإنسان اليوم أنه مهما عرف عن عمليات (المخ) فإن مفاهيم (الإدراك) و(العقل) و(الوعي) و(الروح) كلها مفاهيم أوسع من (المخ)، وأن العلم بها أعلى مما وصلنا إليه ومما يتصوره العلم اليوم في أرقى نظرياته. إذاً، فلنترك العلم التجريبي يواصل تقدمه ولنعد إلى الوحي الإلهي للبحث عن إجابات عن هذه الأسئلة الكبيرة.

خالق العقل سبحانه وتعالى يعلمنا في كتابه الكريم أن العقل لا يساوي المخ، وأن التفكير لا ينفصل عن الشعور، وأن الإنسان مركبة أجزاؤه تركيباً بديعاً لا تصح معه النظرة الجزئية الميكانيكية التي لم يتجاوزها العلم التجريبي لا في نظرية المخ كساعة ولا نظرية المخ كحاسوب أو شبكة حواسيب. وفي القرآن لم ترد كلمة "العقل" في لفظتها هذه أو في صيغتها الاسمية، وإنما وردت مشتقاتها قرابة خمسين مرة في مواضع عدة في القرآن الكريم: (تَعْقِلُونَ، عَقَلُوهُ، نَعْقِلُ، يَعْقِلُهَا، يَعْقِلُونَ)، وكذلك وردت مشتقات لألفاظ الفهم والنظر والتدبر والفقه والفكر والعبرة، مثل: (تَفْقَهُونَ، لِيَتَفَقَّهُوا، نَفْقَهُ، يَفْقَهُوا، يَفْقَهُونَ، يَفْقَهُوهُ)، (فَفَهَّمْنَاهَا)، (تتفكروا، يتفكرون، فكّر)، (يتدبرون، يدّبروا)، (انظروا، فلينظر)، (اعتبروا، عبرة لأولي الألباب)، وهكذا.

---

[2] المصدر نفسه، "سورة الإسراء،" الآية 85.

ومن قراءة متكاملة لتلك الكلمات ومواضعها في القرآن الكريم تتضح الرؤية القرآنية لفعل التفكير الذي ارتبط في جميع الآيات إما بالتفكر في السنن والظواهر الكونية أو في ظواهر النفس البشرية. وهذا التفكر والتفكير بجميع أشكاله لا ينفصل في الرؤية القرآنية عن محاولة الوصول إلى الله تعالى وإلى الحكمة.

ولكن، قال تعالى: (**فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ**)[3]، وقال: (**وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ**)[4]، وقال: (**لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا**)[5]، مما يعني أن القلب في كلام خالق القلب مرتبط بالفقه، أي التفكير والإدراك والتذكر والسماع، مما ينفي أن يكون العقل هو المخ فقط، وإنما يجعل "القلب" هو مركز الفقه والفهم. وهناك عدد من آيات الذكر الحكيم تدور حول المعنى نفسه، وتشير إلى القلب كأداة للفقه والفهم والتفكير، قال تعالى: (**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ**)[6]، فجعل التذكر متعلقاً بوجود "قلب"؛ وقال تعالى: (**وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ**)[7]، فجعل السمع متعلقاً بالقلب؛ وقال تعالى: (**وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**)[8]، فجعل العلم متعلقاً بالقلب.

---

[3] المصدر نفسه، "سورة المنافقون،" الآية 3.

[4] المصدر نفسه، "سورة الإسراء،" الآية 46.

[5] المصدر نفسه، "سورة الأعراف،" الآية 179.

[6] المصدر نفسه، "سورة ق،" الآية 37.

[7] المصدر نفسه، "سورة الأعراف،" 100.

[8] المصدر نفسه، "سورة التوبة،" 93.

وحتى نعلم علم اليقين أن (القلب) هو نفسه ذلك العضو الذي يكمن في الصدر وليس استعارة تشبيهية، قال تعالى: (**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**)[9]، فالقلوب التي في الصدور هي المعنيّة وهي مجال البصر، أي مجال الفكر، وليس الفكر في إشارات كهربائية في أعصاب العقل ولا في مضخة الدم في عضلات القلب، بل أثبتت آخر الدراسات الطبية في هذا المجال أن الأعصاب في منطقة الفؤاد أي الفراغ الذي يحتوي القلب تحتوي على ذاكرة خاصة بها ومراكز تفكير وقرار خاصة بها، بل اكتشفوا أن القلب يوجه المخ نفسه عن طريق هذه الأعصاب وعن طريق التواصل بموجات كهرومغناطيسية خاصة، وأن المجال الموجي للقلب يتواصل مع جسد الإنسان وأجساد من حوله بشكل مباشر[10].

فالعقل إذاً هو القلب في المفهوم الإسلامي، وإذا غفل القلب عن الفكر السليم عمي البصر، والبصر في هذا المفهوم القرآني هو البصيرة، أي الفهم والفقه والتعقل، والتي وردت في مواضع عدة في القرآن الكريم بمشتقاتها التي ذكرناها؛ والقلب هو الذي إذا (صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله)، كما قال صلى الله عليه وسلم[11].

---

[9] المصدر نفسه، "سورة الحج،" الآية 46.

[10] راجع مثلاً: www.heartmath.org.

[11] رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، حديث رقم 50: حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ حَدَّثَنَا زَكَرِيَّاءُ عَنْ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: "الْحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ. فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ. أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ. أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ".

إذاً، كيف نفكر تفكيراً سليماً؟

خلق الله هذا الكون حسب مجموعة من القوانين والمعايير الطبيعية، وهي ليست القوانين التي يظنها الإنسان نتيجة للعلم التجريبي مع اكتشافاته، ولا المعايير التي يكتسبها الإنسان نتيجة لظروف نشأته أو لأنه يحب شيئاً ما أو يكره آخر، أو لانتماء لسياسة معينة أو إلى ثقافة معينة؛ ولكن القوانين والمعايير الطبيعية التي خلق الله بها الكون والإنسان هي السنن الإلهية والفطرة البشرية. الله عز وجل خلقنا بشراً على سنن معينة وبفطرة معينة مغروسة في كل البشر، بل وفي عالم الحيوان والنبات كذلك، **(وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُون)**[12].

وكون الإنسان يحب ويكره فهذه فطرة بشرية، وكون الإنسان يغتني ويفتقر، يتملك ولا يتملك، ويطرب بالصوت الحسن، ويجوع فيأكل، ويتنفس ويفكر ويتحرك ويتزاوج، فهذه كلها فطرة بشرية، ولا نستطيع أن نفكر خارج إطار الفطرة البشرية، فكل طريقة تفكير تتعارض مع الفطرة البشرية أو تحاول تعطيلها أو إلغاءها هي منهجية خاطئة وتؤدي إلى نُظُمٍ فاشلة في عالم الواقع.

إذاً بداية التفكير السليم هي أن نحاول أن نتسق مع الفطرة البشرية وسنّة الله في خلقه: **(فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)**[13]، ومن

---

12 **القرآن الكريم**، "سورة الأنعام،" الآية 38.

13 المصدر نفسه، "سورة الروم،" الآية 30.

ثم تكون منهجية التفكير، ومنطق الاستنتاج، وبناء التصورات حول الإنسان والطبيعة والعلم والعلاقات، وكل شيء حولنا، نابعاً من الاتساق مع هذه السنن الإلهية في خلق الكون والإنسان كما ذكرها الله تعالى في كتابه. هذا هو منهج التفكير السليم.

فلنبدأ إذاً قبل مراجعات ترتيب العقل بمراجعةٍ للسنن التي تحكم حركة الكون كما علَّمنا إياها خالق الكون تعالى في كتابه الكريم. كتاب الله تعالى هو مصدر العلم بالسنن الكونية والفطرة البشرية بشكل مطلق، وعلوم الدنيا هي مجرد نظريات، مفيدة ولكنها ليست مطلقة.

ماهي السنن الإلهية؟

السنن الإلهية هي قوانين مطّردة خلق الله عز وجل بها الكون ويسيّره على نسقها، وهي بالتعبير القرآني: فطرة الله أو سنة الله. وهذه السنن تحكم كل شيء في هذا الكون على نفس المنوال، من الذرة إلى المجرة، وتحكم على الخلية البشرية أو النباتية أو الحيوانية، وعلى الإنسان، وتجمعات الإنسان، وحضارات الإنسان، وتجمعات الحيوان، وتجمعات النباتات، وتحكم كذلك على حركة التاريخ ومسيرة المجتمعات.

ويُحكم على سلامة أي منهج أو تصور بكونه متسقاً مع السنن الإلهية، فإن كان متسقاً معها ولا يضادها فهو منهج سليم وتصور ينطلق من بداية صحيحة. وما يعاني منه العالم في ميادينه المختلفة عبر الزمان والمكان هو محاولة الإنسان أن يُضاد السنن والفطرة. ويأتي كل عصر وتأتي كل مرحلة بمحاولات عدة لتغيير هذا الكون

بالعلم تارة، وبالدين تارة، وبالحروب والصراعات تارة، بما يتعارض مع السنن والفطرة؛ فكثر الفساد والحروب والقتل والدمار، وأفسد الإنسان مناخ الأرض ومواردها، (**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**)[14]. ثم يبدأ الإنسان في محاولة علاج ما أفسده من مناخ أو طبيعة بشرية أو ما أفسده نتيجة لصراعاته وحروبه وتبديد موارده، فيأتي بحلول أخرى تُضاد الفطرة والسنن الإلهية، فيظل في دائرة مفرغة. لذا كان المبتدأ والمنطلق هو فهم هذه السنن الكونية والاتساق معها كمنهج تفكير ونظر للطبيعة والإنسان والزمان والمكان والعلاقات وكل شيء في هذه الحياة التي خلقها الله. هذا هو التفكير الذي يمكن أن نطلق عليه (صحي) و(سليم).

كيف نعرف السنن الإلهية؟

قراءة الكون والطبيعة ودراستها وما يأتي به العلم التجريبي عبر العصور يُفسِّر لنا العديد من الظواهر بناء على ملاحظات معملية أو تجارب أو معادلات رياضية، فتُستنتج القوانين والنظريات وتُفسَّر الظواهر الاجتماعية وطبيعة البشر أو العلاقات بين الأشياء كعلاقة مطردة بين معدلين أو قوتين مثلاً كما تدل عليهما المعادلات والإحصاءات. ولكن قد يحدث أن تتغير أو تتطور هذه التفسيرات أو النظريات أو التجارب أو الملاحظات المعملية، فقد يأتي حدث ينفي صحتها، أو يكتشف العلماء أن في التجارب قصوراً ما كتقديرٍ رقمي قاصرٍ أو كتجربة معملية أغفلت عاملاً من العوامل كان غائباً، أو

---

[14] المصدر نفسه، "سورة الروم،" الآية 41.

يكون اكتشاف جديد في مجال ما فيحدث تغيراً في قانون أو معادلة في مجال ذي علاقة به، أو أن تتغير ما أنتجته الدراسات الاجتماعية من تحليلات وتفسيرات لبعض الظواهر بناء على دراسات إحصائية أدق وأوسع، وما إلى ذلك. والتغير يحدث ليس فقط في علوم (الطبيعة) بل في علوم (ما وراء الطبيعة) أيضاً، فما كان ضمن مجال (ما وراء الطبيعة) اليوم قد يكون ضمن مجال (الطبيعة) غداً.

إذن، قراءتنا ودراستنا للكون ليست بالضرورة كاشفة عن السنن الإلهية الحقيقية، لأن من شروط السنن أنها لا تتبدل ولا تتغير، إذ هي الحكمة المجردة التي تتجاوز كل فكر بشري، وسيظل الإنسان إذاً بحاجة إلى مصدر أعلى يعرف به السنن والقوانين الكونية العليا التي وضعها الله نظاماً لا يتطور ولا يتبدل.

وليس من مصدر أوثق من كتاب الله الكريم لمعرفة السنن والقوانين الإلهية، وكيف خلق الله عز وجل الكون والحياة والإنسان، يقول تعالى: (**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهَّ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهَّ تَحْوِيلاً**)[15]، وقال تعالى: (**سُنَّةَ اللهَّ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهَّ تَبْدِيلاً**)[16]، وقال تعالى: (**سُنَّةَ اللهَّ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهَّ قَدَراً مَّقْدُورا**)[17]. وهاك بعض هذه السنن الخالدة كما فصّلها الكتاب العزيز:

---

[15] المصدر نفسه، "سورة فاطر،" الآية 43.

[16] المصدر نفسه، "سورة الأحزاب،" الآية 62.

[17] المصدر نفسه، "سورة الأحزاب،" الآية 38.

أولاً: سنة التوحيد:

خلق الله سبحانه وتعالى هذا الكون وحدة واحدة متسقة ومتواصلة ومتشابكة في نَسَق فريد، قال تعالى: **(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ. أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)**[18]، وخلق الله تعالى الناس جميعاً من نفس واحدة ترجع أصولهم جميعاً إليها، قال تعالى: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا)**[19]. والتفكر في الكون في إطار من التوحيد يدل المخلوق على الخالق عز وجل، قال تعالى: **(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)**[20]. فنحن المخلوقات خُلِقْنَا من شيء واحد، ومن مادة واحدة في الأصل، ثم نُفخ في البشر من روح الله سبحانه وتعالى وتناسل البشر، لذلك فإن بين البشر تشابهاً في الخلق والفطرة والاستعداد الطبيعي والملكات الأصلية، بل إن هناك تشابه طبيعي في كثير من السنن بين البشر والحيوان والنبات: **(وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم)**[21]، **(وَإِنَّ لَكُمْ**

---

18 المصدر نفسه، "سورة الأنبياء،" الآية 30.

19 المصدر نفسه، "سورة النساء،" الآية 1.

20 المصدر نفسه، "سورة الجاثية،" الآية 13.

21 المصدر نفسه، "سورة الأنعام،" الآية 38.

فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً)[22]، (**وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**)[23].

وبناء على هذا الأصل فالتواصل بيننا وبين الكون من سنن الله سبحانه وتعالى؛ لأن الكون مخلوق مسبِّح ومسلم لله سبحانه وتعالى؛ فنحن البشر لسنا أعداءً للطبيعة كما في بعض الفلسفات التي تعتبر الإنسان في (صراع) يحاول التغلب فيه على (الطبيعة الأم) ويتحداها، بل نحن نعيش مع الطبيعة في إطار أننا كلنا عباد لله سبحانه وتعالى. (**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**)[24]. (**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ**)[25].

ومردود هذا الكلام على العقل أنه لا يصح مبدئياً منهج التفكير الذي ينظر إلى الظواهر الكونية دون اعتبار لترابطها وعلاقتها البينية ودون اعتبار لتوحيد أصلها واتساق نُظمها، ولا التفكير الذي يدرس الظواهر الاجتماعية مثلاً على مختلف مستوياتها دون اعتبار لترابطها وتكاملها وعلاقتها البينية، ليس فقط في أبعادها الاجتماعية، بل وفي أبعادها السياسية والاقتصادية والنفسية والتاريخية، بل وفي علاقة كل هذه الأبعاد والمؤثرات بالكون ودوراته ونواميسه الكبرى. فمنهج التفكير التجزيئي الضيق هو منهج خاطئ لأنه يتعارض مع طبيعة الفطرة ومع سنن التوحيد والاتساق والتكامل والتوازن.

---

[22] المصدر نفسه، "سورة النحل،" الآية 66.

[23] المصدر نفسه، "سورة الذاريات،" الآية 49.

[24] المصدر نفسه، "سورة الإسراء،" الآية 44.

[25] المصدر نفسه، "سورة النحل،" الآية 49.

ثانياً: سنة التنوع:

والتنوع كذلك سنّة راسخة من سنن الخلق التي لا يقوم منهج تفكير سليم إلا بها، وهو من طبيعة الكون التي نستطيع أن نراها في الإنسان والحيوان والنبات وفي كل ما خلق الله، قال تعالى: **(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَّ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا * وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ)**[26].

ويعلمنا ربنا تعالى أن التنوع بوصفه سنة إلهية يقصد إلى التكامل وليس إلى الصراع، فهناك مثلاً تنوع في اللسان والألوان قال عنه سبحانه وتعالى: **(وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ)**[27]؛ ويتحدث الناس بلغات ولهجات ولكنات مختلفة، ولكن القصد من سنّة التنوع البشري هو التعارف: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)**[28]. وعلى الرغم من أن القرآن نزل بالعربية، تلك اللغة الجميلة الواسعة التي لا مثيل لها في اللغات المعروفة والتي شرفها الله تعالى بأن تكون لغة القرآن، إلا أنه ليس هناك جنس من الناس ولو كانوا من العرب أفضل من جنس آخر.

وبعض العنصريين في القرن العشرين، اعتبروا أن هناك جنساً أوروبياً معيناً أعلى من أجناس أخرى، وأن هناك أجناساً (فوق

---

[26] المصدر نفسه، "سورة فاطر،" الآية 27.

[27] المصدر نفسه، "سورة الروم ،" الآية 22.

[28] المصدر نفسه، "سورة الحجرات،" الآية 13.

الجميع)، ثم تمادوا وطبقوا سياسات عنصرية فشلت فشلاً ذريعاً فضلاً عن أنها أدت إلى كوارث إنسانية كبيرة، وهذا مثال فج على عدم فهم سنة التنوع كسنة طبيعية وبشرية.

وسنة التنوع لها أثر في التعامل مع قضية الأقليات، عرقية كانت أو دينية، فقد يحدث أن تفرض بعض الدول نسقاً محدداً من السياسات مضيقاً على الأقليات جبراً باسم المصلحة الوطنية أو باسم سيادة الأغلبية، مما يزيد الصراع داخل المجتمع ولا يؤدي إلا إلى المزيد من المشكلات، نظراً لأنها سياسات لا تراعي سنة التنوع، قال تعالى: **(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)**[29]. ويأتي في ثنايا هذا الكتاب مزيد من الحديث عن هذا الموضوع.

وتتنوع الثمار والحيوانات وتضاريس الأرض كذلك. قال تعالى: **(وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِيبُ سُودٌ)**[30]، فالثمرات تختلف في الأشكال والألوان، ولكن هذا التكامل هو لصحة الآكلين إذ أنها تتكامل في تحقيق الفوائد المتنوعة في صحة الإنسان، فلكل ثمرة فائدتها الخاصة وتحتوي على أنواع من العناصر التي تمد الإنسان بها، وكما يقول أخصائيو التغذية: "كلما تنوعت الألوان في طعامك كلما تحسنت صحتك".

وقد يكون التنوع أيضاً من باب دفع الملل، مثل التنوع في العبادات؛ فالله عز وجل من رحمته وفضله وكرمه أنه نوّع العبادات للعابدين، تصلي لله من النوافل، وتصوم أياماً متفرقة في العام، وتتصدق في

---

29 المصدر نفسه، "سورة هود،" الآية 118-119.

30 المصدر نفسه، "سورة فاطر،" الآية 27.

أبواب مختلفة، والكثير من الفضائل وأعمال التعبد والذكر التي يستطيع أن يمارسها الإنسان ويتنقل فيما بينها. وقال العلماء إن العبادات تتنوع من باب دفع الملل وبقصد الدوام على العمل الصالح، وهذا من حسن الفقه والفهم عن الله.

كما أن اختلاف الألوان والأشكال سنة طبيعية، فلا يمكن مثلاً أن نوحد أذواق الناس، كما حاولت بعض النُّظُم الشيوعية في أوج الشيوعية أن توحِّد ملابس الناس وألوانها، ولم تنجح هذه التجربة بالطبع، لأن الناس يختلفون في أذواقهم واختياراتهم، قال تعالى: **(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ)**[31]. وهذا الاختلاف ليس نقمة ولا عقوبة، كما نجد في تحريف بعض الكتب المقدسة أن اختلاف الألسنة كان عقوبة للبشر على معاصيهم. أما المنهجية القرآنية فلا ترى التنوع عقوبة، بل هو نعمة ومنّة وسعة من الخالق تعالى. والإسلام لا يعرف توحيد الملابس إلا في شعائر الحج، والقصد فيها هو إشعار الجميع بالمساواة أمام الله تعالى، ولذلك فالإسراف في شعائر الحج يتعارض حتماً مع القصد الإلهي من الحج ومع المنطق الإسلامي السليم والعقل المؤمن الحي.

والتنوع في شرائع الدين أيضاً من سنن الله سبحانه وتعالى في خلقه، **(لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)**[32]. هناك حق وباطل بالطبع، ولا يصح شرعاً ولا عقلاً أن نساوي بين الحق والباطل، ونحن ندعو الناس بالطبع إلى الإسلام وإلى رسالة النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم، ولكن

---

31 المصدر نفسه، "سورة الروم،" الآية 22.

32 المصدر نفسه، "سورة المائدة،" الآية 48.

الاختلاف الديني نفسه هو سنة من سنن الله الطبيعية في خلقه، ولذلك فقد قال تعالى: **(وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)**، وقال: **(لكم دينكم ولي دين)**، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: **(وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ)**[33]. فالأديان والشرائع تتنوع، وهذا من التنوع الطبيعي، ولا يصح شرعاً ولا عقلاً أن يُكرَه الناس على شعائر الدين في أي نظام يسمي نفسه (إسلامي)، لأنه: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)[34]، إلا ما يتعلق بالنظام العام من أحكام بطبيعة الحال.

وتنتشر في بلاد عربية ومسلمة مذاهب متنوعة سنية وشيعية، وهذه حقيقة تاريخية ودينية واجتماعية لا يمكن محوها بجرة قلم، ومن مراعاة سنن التنوع أن ندرك أنه لا يمكن سياسياً ولا شرعياً أن يُفرض مذهب بعينه على مجتمع متنوع بطبعه، سنياً كان أم شيعياً، حنفياً كان أم مالكياً، إباضياً كان أم زيدياً، ثم يُلغى المذهب الآخر ويقصى أتباعه دينياً أو سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً. لا يصح أن تُنفق الأموال العامة وتجيّش الجيوش الثقافية، بل والعسكرية أحياناً، لتشييع السنة ولا لتسنين الشيعة، هذه عندي علامة على عدم فهم سنة التنوع داخل الدين الإسلامي نفسه، ولا تؤدي هذه المغامرات السياسية إلا إلى اضطرابات وصراعات وظلم متبادل، كما يحدث دائماً في ظل سياسة المذهب الواحد والرأي الواحد والمنهج الواحد والحزب الواحد.

وكذلك التنوع في الأخلاق بين الناس من سنن الله تعالى في خلقه، فالناس معادن كما قال سيد الخلق صلى الله عليه وسلم، يختلفون

---

33 المصدر نفسه، "سورة المائدة،" الآية 43.

34 المصدر نفسه، "سورة البقرة،" الآية 256.

في طبائعهم وخصائصهم، فبعضهم حليم وصبور، وبعضهم أحمق وسريع الغضب، والناس يختلفون في الذكاء والغباء، وفي الغنى والفقر، وفي القوة والضعف، وفي العلم والجهل، والتعامل بمنطق التعميم في أمور التنوع البشري يتعارض مع سنن الله في خلقه ويضر بمصالحهم.

ومن ثَمَّ إذا كنت تتعامل مع المجتمع من خلال عمل عام أو خدمة مدنية فلا بد أن تفهم التنوع في البيئة التي تتعامل معها واختلاف احتياجات الناس وثقافتهم، وإذا كنت مدرساً فلا بد أن تفهم التنوع في التلاميذ واختلاف مستوياتهم وقدراتهم، فهناك من يفهم أسرع، وهناك من يحفظ أسرع، وهناك من يستوعب أكثر، كما قال تعالى: **(يزيد في الخلق ما يشاء)**. وإذا كنت تتعامل مع مسائل تتعلق بالسياسة فمن الضروري فهم تنوع المجتمع واختلافاته وطبقاته وفئاته، حتى تستطيع أن تسوس الناس بحكمة وتوازن، لأن السياسة هي القيام على الأمر العام بما يصلحه، فلا تستطيع أن تُصلح الأمر العام دون اعتبار التنوع بين من تقودهم وتسوسهم.

والإسلام بشريعته الغراء يراعي التنوع في كل شيء، ولا يقصد أبداً أن يلغي نوعاً ولا مكوّناً من مكوّنات المجتمعات الإنسانية أو الحيوانية أو النباتية؛ والنبي صلى الله عليه وسلم مثلاً حين حدثت حوادث في المدينة من اعتداء بعض الكلاب المسعورة على الناس أمر بقتل تلك الكلاب، ولكن حين استشرى القتل في الكلاب قال صلى الله عليه وسلم: (لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها)[35]. فالنبي صلى الله عليه وسلم راعى هنا التنوع حتى في عالم الحيوان ويعلمنا أن الحفاظ عليه سنة إلهية، وكأن الحديث يشير إلى الآية: **(وَمَا مِنْ**

---

35 صحيح مسلم.

دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ)[36]. وعلى قياس ذلك الحديث النبوي لا بد أن نطبق سنة التنوع في الحيوانات والنباتات ونحافظ عليها جميعاً كواجب إسلامي وكتفكير سليم. وأما مراعاة سنة التنوع بين البشر فهي أولى من مراعاتها مع الحيوانات، أليس كذلك؟ ولكن بعض الناس يريدون إلغاء التنوع البشري قسراً، ويهتمون بحقوق الحيوان أكثر من حقوق الإنسان، وهو خلل عقلي وأخلاقي.

فالبشر أصلهم واحد، ولهم طبيعة وكرامة إنسانية واحدة، إلا أنهم متنوعون، وسيظلون متنوعين ومختلفين في الديانات والآراء والمذاهب والمشارب. وشريعة الإسلام تدعو الناس إلى الإيمان والعدل والحكمة والقوة والغنى، ولكنها لا تقصد أن تلغي ببساطة الفوارق بين الناس في كل هذه الأبعاد، لأن الواقع الحتمي أن من سنن الله تعالى أن الناس لا يزالون مختلفين. وإذا أدرك الإنسان في منهج تفكيره سنة التنوع وأنها جزء من طبيعة هذا الكون كان حكمه على الأمور أكثر حكمة وأكثر "عقلانية". ولا يصح منهج التفكير الذي يرى الدنيا بمنظار الأبيض والأسود فقط.

ثالثاً: سنة التكامل والتعاضد:

خلق الله عز وجل الكون متكاملاً متعاضداً متوازناً بعضه مع بعض؛ فالنباتات والطيور تعتمد على الحشرات، والحشرات تعتمد على الأمطار، والأمطار تعتمد على البحار، والعصفور لا يستطيع أن يعيش وحده في الكون دون الحبّ، ولا النحلة تستطيع أن تعيش دون الرحيق، والرحيق يتولد في الزهرة من أجل النحلة التي تحمل اللقاح

---

36 المصدر نفسه، "سورة الأنعام،" الآية 38.

فتحافظ على نوع النبات، والإنسان جزء من هذا كله ويتفاعل مع الجميع، وسبحان من قال: **(وأنبتنا فيها من كل شيء موزون. وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين)**[37].

فإذا كان هذا التكامل على مستوى الكون فطرياً وطبيعياً، فمن الأولى أن يتسق فكر الإنسان نفسه مع هذه السنّة، كفرد في مجموعة أو مجتمع أو مؤسسة، أي أن يعيش الإنسان في تشابك وتكامل مع الآخرين، ذلك لأن الشراكات البشرية مثلها كمثل النحلة والوردة واعتماد كل منهما على الآخر من أجل أن يعيش. **(نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِياً)**[38]، كما يبين القرآن من سنن الله تعالى في خلقه.

رابعاً: سنة الحركة حول محور في دورات:

يتحرك كل شيء في الكون حول محور يمثل مرجعية ومركزاً ومداراً؛ الأرض حول الشمس، والقمر حول الأرض، والإلكترونات حول النواة. فهناك ثوابت وهناك متغيرات، والمتغيرات تدور حول الثوابت، وهذه سنة إلهية في كل القضايا، في الدين والسياسة والفكر والفلسفة، ففيها كلها ثوابت وفيها متغيرات. والمتغيرات هدفها أن تخدم الثوابت، ولذلك فإنه من المهم أن نفهم الفارق بين الثوابت والمتغيرات لنستطيع التوازن بينهما وليستقيم منهج الفكر؛ فقد يتجه تفكير البعض إلى

---

37 المصدر نفسه، "سورة الحجر،" الآيتان 19-20.

38 المصدر نفسه، "سورة الزخرف،" الآية 32.

اعتبار كل الأمور من الثوابت لا نقاش فيها، فينغلق تفكيرهم ولا يُعملون عقولهم، وينتهي بهم ذلك إلى الجمود والركود، كما حدث في بعض مجالات الفقه مثلاً، وكما نرى أمثلة على انغلاق الفكر في عالم السياسة والاقتصاد والاجتماع، مما يوقع الناس في حرج كبير. وفي المقابل هناك من يعتبر كل ما في الأخلاق والفكر والدين من المتغيرات، وليس عنده مقدسات ولا ثوابت ولا قطعيات، فيعيش في فوضى عارمة وفساد وهوى.

والتوازن بين الثوابت والمتغيرات بدوران المتغيرات حول الثوابت يقي الإنسان من أن يثبت على ما لا يصح الثبوت عليه فيصبح الثبوت جموداً، ويقيه كذلك من أن يغيّر ما لا يصح أن يتغير فيصبح التغيير انحرافاً. تغيير الثوابت انحراف، وثبوت المتغيرات جمود وضيق، وكلاهما يتعارض مع السنن الإلهية.

ومن لطائف منهج التفكير الذي يراعي السنن الإلهية في الخلق أن نلحظ كذلك أن ما قد يُصنّف في وقت ما على أنه (ثابت) قد يتحرك، ولكن بمعدل أقل؛ فالقمر مثلاً يتحرك حول الأرض بسرعة عالية وكأن الأرض بالنسبة إلى القمر من الثوابت، ولكن الأرض نفسها تتحرك وتدور والقمر يدور معها، والأرض في حركتها أبطأ مع دورانها حول الشمس وكأن الشمس ثابتة، ولكن الشمس تتحرك كذلك وإن كانت حركتها بمعدل أبطأ، قال تعالى: **(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا)**[39]، ثم قال: **(وكلٌّ في فلك يسبحون)**؛ فالشمس تتحرك حول مركز المجرة، ولكنها حركة بطيئة حسب السنن في بطء حركة الأجرام الكبيرة مقارنة بالأجرام الأصغر، ومركز المجرة يتحرك أيضاً. وإسقاط هذا المعنى على عالم التفكير يقتضي أن ما نعتقده في

---

39 المصدر نفسه، "سورة يس،" الآية 38.

عصر ما أنه من الثوابت قد يكون متحركاً ومتغيراً، ولكنه يتحرك بمعدل أقل من معدل حركة المتغيرات الأخرى. وهذا من الفهم والفقه لحركة التاريخ وسننه الكبرى ويحتاج إلى وعي وحكمة في التعامل مع مفهوم الثبات والتغير.

خامساً: سنة التوازن:

وخلق الله الكون متوازناً متناغماً متسقاً، **(وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ)**[40]، **(وأنبتنا فيها من كل شيء موزون)**، فإذا تركنا الأرض دون تدخل ودون فساد فستستمر الحياة عليها دون تدمير أو نفاد للموارد الطبيعية، ولكن الفساد يأتي من قبَلنا نحن البشر؛ يقول تعالى عن اختلال التوازن في الأرض وكأنه يتحدث عن ما نعاصره اليوم من أحوال: **(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)**[41]، فنحن نفسد الكون بتصرفاتنا البشرية.

ولكن يحدث أن يتعرض الكون طبيعياً لتغيرات طبيعية ومناخية قاسية، كأن يتعرض لاحتباس حراري وعصر جليدي كل مئة ألف سنة تقريباً، ولكن هذا التغير هو نفسه متوازن وبطيء. أما الصورة التي نراها اليوم من تغير مناخي سريع ومخيف فهو بسبب أن الإنسان قد أفسد الطبيعة بسرعة غير طبيعية نظراً لتبديده للثروات الطبيعية من غابات خضراء شاسعة وأنهار نقية وجبال راسخة،

---

40 المصدر نفسه، "سورة الرعد،" الآية 8.

41 المصدر نفسه، "سورة الروم،" الآية 41.

فحِرْص الإنسان على الاستهلاك المادي والرفاهية تم في عصرنا على حساب سلامة الكون وصحة الإنسان وتوازن الطبيعة ومواردها وخضرة غاباتها ونقاء أنهارها ورسوخ جبالها.

وكذلك الاقتصاد بطبيعته تمر عليه دورات بين التضخم والرفاه، وبين العَرْض والطلب، لكنْ نحن الذين نفسد الاقتصاد بالتدخلات الظالمة والاحتكار والربا والغلاء غير الطبيعي، مما يخل بتوازن الاقتصاد ودوراته المتزنة التي يمكن أن نصفها بالطبيعية؛ ولذلك فالله تعالى حذرنا من النظم الاحتكارية التي يُتداول فيها المال بين الأغنياء ويُحرَم منه الفقراء، فقال عز من قائل: **(كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم)**[42].

وتحقيق العدل في الواقع هو في تحقيق التوازن الطبيعي، يقول تعالى: **(اللهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ)**[43]، فيأتي هنا نزول الكتاب في القرآن مقترناً بإقامة الميزان أو الوزن، والذي يأخذ صورته البشرية في مفهوم العدل كما ذكر القرآن الكريم، فتعريف العدل في سنة الله في خلقه هو في تحقيق التوازن بين التنوعات في المجتمعات البشرية والوجود الكوني، والله عز وجل هو العدل، ويقيم العدل في الآخرة إن لم يقم في الدنيا، حتى بين الشياه التي تتناطح فيقتص من بعضها لبعض يوم القيامة، كما في الحديث[44].

وتحقيق العدل هو في تحقيق التوازن مع مراعاة سنة التنوع، قال تعالى: **(وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا**

---

42 المصدر نفسه، "سورة الحشر،" الآية 7.

43 المصدر نفسه، "سورة الشورى،" الآية 17.

44 قال صلى الله عليه ووسلم: لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء (أي التي لا قرن لها) من الشاة القرناء. رواه مسلم في كتاب البر رقم 2582

فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهَّ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)[45]، وهذا يعني أنه حتى إذا أدى التنوع والاختلاف إلى خلاف وحرب لا قدر الله، فلا بد من إقامة العدل حتى يعود السلام، ولا سلام دون عدل، لأن العدل هو الذي يحافظ على التنوع، ويؤدّى إلى التوازن على مستوى الأفراد والأسر والمجتمعات، وإذا أردنا أن نقيم التوازن فلا بد أن نقيم العدل. وهذه قضية ليست سياسية فقط، وإنما هي قضية سياساتية، واجتماعية، واقتصادية، ونفسية، وفي كل مجال من مجالات الحياة.

سادساً: سنة التداول:

ومن مقتضيات سنتي التوازن والعدل سنة التداول، قال عزّ من قائل: **(وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللهَّ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)**[46]؛ بل إن هناك تداولاً في كل شيء في الطبيعة وليس فقط في حياة البشر أفراداً وأمماً، وهي سنة ماضية، وسبحان الذي يغيّر ولا يتغير، فهناك تداول بين الحرارة والبرودة، والشهيق والزفير، والغنى والفقر، وبين القوة والضعف في حياة الإنسان، **(اللهَّ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)**. وهناك تداول في كل أشكال الحركة الفردية والجماعية والحضارية والكونية على شكل دورات. وسوف نرى أمثلة

---

45 المصدر نفسه، "سورة الحجرات،" الآية 9.

46 المصدر نفسه، "سورة آل عمران،" الآية 140.

على مراعاة سنة التداول، من أهمها التداول السلمي للسلطة، وهو من المعاني الحميدة التي تحققها نظم التعددية السياسية، ومن مقتضيات التفكير والتدبير السليم الحكيم.

سادساً: سنة الإسلام لله:

ومن السنن الإلهية في الخلق أن الكون كله مسلم لله سبحانه. قال تعالى: **(أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)**[47].

والإسلام لله سبحانه وتعالى لا يقتصر على المسلمين أو المؤمنين بالله، وإنما يشمل أيضاً أجساد الكفار به، قال تعالى: **(ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال)**، وقال: **(يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)**[48]، وقال: **(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۚ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً)**[49]؛ ولذلك فالإسلام لله سنة إلهية ولو عارضها الكفار بالله، فهم يعارضون الفطرة التي تتماشى معها أجسادهم نفسها ويحاربونها ويشقَون بذلك.

---

47 المصدر نفسه، "سورة آل عمران،" الآية 83.

48 المصدر نفسه، "سورة النور،" الآية 24.

49 المصدر نفسه، "سورة الإسراء،" الآية 44.

ولا يستقيم التفكير دون أن يستقيم القلب، والقلب يستقيم بأن يسلم لله سبحانه وتعالى كما أسلم كل شيء لخالقه، وهذا هو صميم معنى الإسلام ومفهوم الإسلام في إسلام العقل (أي القلب) لله.

إذاً، إذا أردنا أن نقوّم مناهج التفكير البشري فلا بد أن يتسق تفكيرنا مع هذه السنن، وألا يتناقض "المنطق" و"العقل" مع أي من هذه القوانين العليا ومقصد مراعاة هذه السنن والاتساق معها.